بنظرائه المستعمرين، والمستعمرين المستوطنين.

الظروف الموضوعية المتميّزة للفلسطينيين

واجه الشعب الفلسطيني ظروفاً عصيبة، وصعبة، منذ بداية الغزو الاستيطاني الصهيوني لأرض فلسطين. ولا نبالغ اذا قلنا انها بلغت من القسوة والمرارة وطول الامد ما لم يواجهه أي شعب آخر على مدى التاريخ، وبخاصة الحديث والمعاصر منه، ومنذ ان بدأ اصطلاح كلمة «شعب» يأخذ مفهومه الحالي في العصور الحديثة.

وعلى الرغم من صعوبة حصر المعاناة الفلسطينية، بشكل جامع مانع، كما يقول الفقهاء، الّا اننا نستطيع، هنا، ابراز أهمّ اشكاليات هذه المعاناة المتفردة، مقارنة مع معاناة الشعوب التي تعرّضت للاستعمار، أو حتى الاستعمار الاستيطاني، من حيث شمولية المؤامرة التصفوية، وضبابية جبهة الاصدقاء والاعداء، وواقع الشتات الفلسطيني.

في شمولية المؤامرة التصفوية التي تعرّض لها الشعب الفلسطيني، نقول، باختصار، لقد شاركت غالبية دول العالم (وانْ كان ذلك بأحجام متفاوتة) في تهويد فلسطين. ويكفي ان نُشير، هنا، الى وعد بلفور، وتمثيله «الشرعي» الدولي لهذا التوجّه من خلال عصبة الامم، ثمّ هيئة الامم المتحدة بعد الحرب العالمية الاولى، والثانية. فقد نصّ قبول عصبة الامم المتحدة لانتداب بريطانيا على فلسطين، عقب الحرب العالمية الاولى، على ان تقوم بريطانيا بتنفيذ التزامها المعلن في وعد بلفور، على تهويد فلسطين. وعلّق د. عبدالوهاب الكيّالي على ذلك: «وفي غضون الفترة الواقعة بين قرارات مؤتمر سان ريمو في نيسان [ابريل] ١٩٢٠ وبين شهر أيلول [سبتمبر] ١٩٢٣ وعندما بدىء بتطبيق بنود الانتداب الفلسطيني تطبيقاً كاملاً، ازدادت مواقف الاطراف الثلاثة لفلسطين تصلّباً وتبلوراً»[٢٩]. «فقد حوّلت احكام الانتداب الانسجام البريطاني ـ الصهيوني، كما حدّده تصريح بلفور، من مشروع حبّ مبنيّ على مصلحة متبادلة الى زواج كاثوليكي لا تنفصم عراه»[٣٠].

وبذلك يتميّز الانتداب البريطاني، والاجماع الدولي على تهويد فلسطين من خلاله، عن غيره من الانتدابات التي أقرّتها عصبة الامم آنذاك، بحيث غدت الانموذج الوحيد في تاريخ السيطرة الاستعمارية[٣١].

ومن حيث ضبابية جبهة الاصدقاء والاعداء، فلم تشهد حركة تحريرية، في تاريخنا الحديث والمعاصر، رمالاً متحرّكة في جبهة الاصدقاء والاعداء كما شهدته حركة التحرر الوطني الفلسطينية. ان نظرة سريعة الى تاريخ الصراع ستؤكد لنا ذلك. وعلى الرغم من مقولة انه لا يوجد اعداء دائمون ولا اصدقاء دائمون، بل توجد مصالح دائمة[٣٢]، الّا اننا لا نتكلم، هنا، عن المواقف المتغيّرة بناء على مصالح هذه القوى، بقدر ما نتكلم عن الرمال المتحرّكة التي سارت عليها الثورة الفلسطينية منذ اندلاعها، خاصة على جبهة الاصدقاء، وذلك التناغم الذي وصل حدّ التحالف، في احيان كثيرة، بين جبهة اصدقاء واعداء الحركة الوطنية الفلسطينية، عربياً ودولياً.

فعلى المستوى العربي، والاسلامي، حيث من الطبيعي ان يشكّل العرب والمسلمون جبهة الاصدقاء، نلاحظ أفعالاً بعكس الاقوال. ولعلّ الاسئلة التالية تؤكد صحّة ما نقوله: كيف نفسّر التحالف العدو (ممثلاً ببريطانيا) مع بعض الحكومات العربية المستقلة، العام ١٩٣٦، لاجهاض اضراب فلسطين العظيم في العام ذاته؟ وكيف نفسّر آلية هزيمة الجيوش العربية أمام